٦ — ابن طفيل

أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسى، أحد أكابر حكماء العرب بالأندلس ولد فى أوائل القرن الثانى عشر للمسيح (القرن السادس للهجرة) بوادى آش إحدى مدن ولاية غرناطة، واشتهر بالطب والرياضيات والحكمة والشعر، شغل منصب كاتم أسرار حاكم غرناطة زمناً يسيراً ثم صار وزيراً وطبيباً للأمير يوسف أبى يعقوب بن عبد المؤمن، ثانى أمراء أسرة المهدى المتوفى سنة ٥٨٠ هـ

ذكر ابن الخطيب أن ابن طفيل علّم الطب فى غرناطة وألف فيه كتابين، وروى عبد الواحد المراكشى وهو ممن اتصلوا بأولاد ابن طفيل، أن المودة كانت بين الحكيم والأمير عظيمة جداً، وانه رأى بنفسه كتباً فى الفلسفة وفى علم النفس وكثيراً من شعره بخط الفيلسوف، وقد انتهز ابن طفيل فرصة تقرب به من الأمير فجلب إلى القصر مشاهير حكماء عصره، وهو الذى قدم إلى الأمير، حكيم الأندلس ابن رشد وكان الأمير طلب منه يوماً أن يرشده إلى عالم خبير بمؤلفات أرسطو ليطلب إليه تفسيرها وتحليلها تحليلاً جلياً فطلب ابن طفيل إلى ابن رشد أن يقوم بهذا العمل واعتذر للأمير عن انجازه بكبر سنه فلبى ابن رشد هذا الطلب وقام بتحليل كتب أرسطو

وقد توفى ابن طفيل فى مراكش عام ١١٨٥ وسار المنصور فى جنازته

ولم يبق لنا من مؤلفات ابن طفيل إلا كتاب واحد هو كتاب « حى بن يقظان » وذكر كازيرى كتاباً اسمه «أسرار الحكمة المشرقية» وهو كتاب «حى بن يقظان» نفسه وذكر ابن أبى أصيبعة فى ترجمة ابن رشد، أن ابن رشد ذكر لابن طفيل كتاباً «فى البقع المسكونة والغير المسكونة» وقال ابن رشد أيضاً فى الإلهيات (الكتاب الثانى عشر) أنه كانت لابن طفيل آراء ثمينة فى الأجرام الداخلة والخارجة.

وهذا يدل على أنه كان لابن طفيل علم واسع بالفلك، وذكر ابو اسحق البتروجى الفلكى الشهير فى مقدمة كتابه فى الفلك وهو الذى أراد أن يستبدل نظريات بطليموس به

« تعلم يا أخى أن استاذنا القاضى أبا بكر بن طفيل قال إنه وفق لنظام فلكى لتلك الحركات ، كان يتبعه غير النظام الذى اتبعه بطليموس، وانه فى غنى عن الدوائر الداخلة والخارجة وان نظامه يحقق حركات الاجرام بدون وقوع فى الخطأ ووعدنا بالتأليف فى هذا الباب ولا عجب فان علمه غنى عن الاطناب »

أما الكتاب الوحيد الذى يثبت فضل ابن طفيل فهو الذى يتضمن فلسفة وقته فى شكل قصة خيالية .

ويظهر من هذا الكتاب أن ابن طفيل كان من الاشراقيين ، وقد حاول بطريق التأمل أن يحل معضلة كبرى شغلت حكماء وقته وهى علاقة النفس البشرية بالعقل الأول ، فانه لم يقنع برأى الغزالى الذى اكتفى فى الاتصال بالتصوف انما اتبع رأى ابن باجه وأظهر نمو الفكر الانسانى درجة فدرجة فى شخص إنسان منقطع بعيد عن مشاغل الحياة سليم من آثارها وأدرانها ، واختار ابن طفيل مخلوقاً لم يعلم من الحياة شيئاً وقد نما عقله فى الانفراد المطلق بذاته وتنبه فكره بقوته وبدافع من العقل الفعّال فأحاط بفهم أسرار الطبيعة وحل أعضل المسائل الالهية : هذا ما أراده ابن طفيل من كتابه « حى بن يقظان » ، وسيأتى الكلام عليه عند تحليل فلسفته

فكان ابن طفيل فلكياً ، رياضياً وطبيباً وشاعراً ، ناثراً رشيق الأسلوب رقيق العبارة . والفضل فى إظهار مواهبه والاحتفاظ بها إلى الأمير يوسف بن عبد المؤمن ، فقد كان عبد المؤمن عهد فى حياته إلى أكبر أولاده وهو محمد بالامارة وبايعه الناس وكتب ببيعته إلى البلاد ، فلما مات عبد المؤمن لم يتم لابنه محمد الأمر وخُلع . وكان الذى سعى فى خلعه أخواه يوسف وعمر ابنا عبد المؤمن . ولما تم خلعه دار الأمر بين الأخوين المذكورين وهما من نجباء أولاد عبد المؤمن ومن ذوى الرأى فتأخر منهما أبو حفص عمر وأسلم الأمر إلى أخيه يوسف وهو أبو يعقوب يوسف بن أبى محمد عبد المؤمن بن على القيسى الكومى صاحب المغرب فبايعه الناس واتفقت عليه الكلمة .

كان الأمير يوسف المذكور أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها

فى الجاهلية والاسلام . وقد صرف عنايته إلى ذلك واقىَ فضلاء أشبيلية أيام ولايته ويُقال إنه كان يحفظ صحيح البخارى وكان يحفظ القرآن الكريم مع جملة من الفقه ثم طمح إلى علم الحكمة وبدأ من ذلك بعلم الطب وجمع من كتب الحكمة شيئاً كثيراً .

وكان ممن صحبه من العلماء بهذا الشأن أبو بكر محمد بن الطفيل وكان متحققاً بجميع أجزاء الحكمة ، قرأ على جماعة من أهلها ، ويحسب ابن خلكان فى ج ٢ ص ٣٧٤ أن أبا بكر بن الصائغ وهو المعروف بابن باجه السابقة ترجمته فى هذا الكتاب كان من أساتذة ابن الطفيل وهذا غير صحيح ، بنص صريح من قول ابن الطفيل نفسه فى كتبه سيأتى ذكره ص ١٠١ وكان ابن الطفيل حريصاً على الجمع بين علم الشريعة والحكمة وكان مفنناً ، ولم يزل يجمع إليه العلماء فى كل فن من جميع الأقطار ومن جملتهم أبو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد كما سيأتى ذكره بالتفصيل فى ترجمة ابن رشد

جعل ابن طفيل فلسفته فى شكل جواب على سؤال توجه اليه من أحد اخوانه وهذا بالطبع تقليد لابن سينا والغزالى قال :

«سألت أيها الكريم الأخ الصفى الحميم ، منحك الله البقاء الأبدى ، وأسعدك السعدَ السرمدىَّ ، أن أبثَّ اليك ما أمكننى بثه من أسرار الحكمة المشرقية ، التى ذكرها الشيخ الامام الرئيس ابو على بن سينا . فاعلم أن من أراد الحق الذى لا جمجمة فيه فعليه بطلبها والجد فى اقتنائها

وصف الحال التى شعر بها ابن طفيل

ولقد حرك منى سؤالك خاطراً شريفاً أفضى بى والحمد لله الى مشاهدة حال لم أشهدها قبل ، وانتهى بى إلى مبلغ هو من الغرابة بحيث لا يصفه لسان ، ولا يقوم به بيان ، لأنه من طور غير طورها ، وعالم غير عالمها . غير أن تلك الحال لما لها من البهجة والسرور ، واللذة والحبور ، لا يستطيع من وصل اليها وانتهى إلى حد من حدودها ، أن يكتم أمرها أو يخفى سرها ، بل يعتريه من الطرب والنشاط ، والمرح والانبساط ما يحمله على

البوح بها مجملة دون تفصيل ، وان كان ممن لم تحذقه العلوم ، قال فيها بغير تحصيل ، حتى أن بعضهم قال فى هذه الحال : س . ب . ح . ا . ن . ى . م . ا . ا . ع . ظ . م . ش . ا . ن . ى ! وقال غيره : ا . ن . ا . ا . ل . ح . ق ! وقال غيره ليس فى الثوب الاَّ . ا . ل . ل . ه !

وأما الشيخ أبو حامد الغزالى رحمه الله فقال متمثلاً عند وصوله إلى هذه الحال

فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

فلسفة ابن باجه فى رأى ابن طفيل

وانظر إلى قول ابى بكر بن الصائغ المتصل بكلامه فى صفة الاتصال ، فانه يقول «اذا فهم المعنى المقصود من كتابة ذلك ظهر عند ذلك انه لا يمكن أن يكون معلوم من العلوم المتعاطاة فى رتبة ، وحصل متصوره بفهم ذلك المعنى فى رتبة يرى نفسه فيها مباينًا لجميع ما تقدم مع اعتقادات أخر ليست هيولانية ، وهى أجل من أن تنسب إلى الحياة الطبيعية ، بل هى أحوال من أحوال السعداء ، منزهة عن تركيب الحياة الطبيعية ، بل هى أحوال من أحوال السعداء خليقة أن يقال لها أحوال الهية يهبها الله سبحانه وتعالى لمن يشاء من عباده» وهذه الرتبة التى أشار اليها أبو بكر ينتهى اليها بطريق العلم النظرى والبحث الفكرى ، ولا شك أنه بلغها ولم يتخطها . . .

الذى يعنيه ابن طفيل بادراك أهل النظر والطعن فى ابن باجة

الذى نعنيه بادراك أهل النظر هو مايدركونه مما بعد الطبيعة ، مثل ما أدركه أبو بكر ، و يشترط فى ادراكهم هذا أن يكون حقًا صحيحًا ، وحينئذ يقع النظر بينه و بين إدراك أهل الولاية الذين يعتنون بتلك الأشياء بعينها مع زيادة وضوح وعظيم التذاذ . وقد عاب أبو بكر ذكر هذا الالتذاذ على القوم ، وذكر انه للقوة الخيالية ووعد بأن يصف ما ينبغي أن يكون حال السعداء عند ذلك بقول مفسر مبين . وينبغي أن يقال له

«لا تستحل طعم شيء لم تذق ، ولا تتخطَ رقاب الصديقين ! » ولم يفعل الرجل شيئاً من ذلك ولا وفى بهذه العدة (الوعد) وقد يشبه أن منعه عن ذلك ما ذكره من ضيق الوقت واشتغاله بالنزول الى وهران، أو راعى انه إن وصف تلك الحال اضطره القول إلى أشياء فيها قدح عليه فى سيرته وتكذيب لما أثبته من الحث على الاستكثار من المال والجمع له وصرف وجوه الحيل فى اكتسابه (كذا)

ولم يكن فى المتأخرين أثقب ذهناً ولا أصح نظراً ولا أصدق روية من أبى بكر ابن الصائغ ، غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته . واكثر ما يوجد له من التآليف انما هى غير كاملة ومجزومة من أواخرها، ككتابه فى النفس وتدبير المتوحد وما كتبه فى المنطق وعلم الطبيعة . وأما كتبه الكاملة فهى كتب وجيزة ورسائل مختلفة ، وقد صرح هو نفسه بذلك وذكر أن المعنى المقصود برهانه فى «رسالة الاتصال» ليس يعطيه ذلك القول عطاء بيناً إلا بعد عسر واستكراه شديد ، وان ترتيب عبارته فى بعض المواضع على غير الطريق الأكمل ، ولو اتسع له الوقت مال لتبديلها . فهذا حال ما وصل الينا من علم هذا الرجل ونحن لم نلقَ شخصه وأما من كان معاصراً له ممن لم يوصف بانه فى مثل درجته فلم نرَ له تأليفاً

نقد فلسفة الفارابى وغيره من المتقدمين
بقلم ابن طفيل

وأما من جاء بعدهم من المعاصرين لنا ، فهم بعد فى حد التزايد أو الوقوف على غير كمال أو ممن لم تصل الينا حقيقة أمره

وأما ما وصل الينا من كتب أبى نصر فأكثرها فى المنطق ، وما ورد منها فى الفلسفة فهى كثيرة الشكوك ، فقد أثبت فى كتاب «الملة الفاضلة» بقاء النفوس الشريرة بعد الموت فى آلام لا نهاية لها بقاء لا نهاية له ثم صرح فى السياسة المدنية بانها منحلة وصائرة الى العدم وانه لا بقاء إلاَّ للنفوس الكاملة . ثم وصف فى كتاب الأخلاق شيئاً من أمر السعادة الانسانية وانها انما تكون فى هذه الحياة التى فى هذه الدار . ثم قال عقب ذلك

كلاماً هذا معناه : « وكل ما يذكر غير هذا فهو هذيان وخرافات عجائز » . فهذا قد أيأس الخلق جميعاً من رحمة الله تعالى وصير الفاضل والشرير فى رتبة واحدة إذ جعل مصير الكل إلى العدم ، وهذه زلة لا تقال وعثرة ليس بعدها جبر ! هذا ما صرح به من سوء معتقده فى النبوة وانها بزعمه للقوة الخيالية خاصة ، وتفضيله الفلسفة عليها إلى أشياء ليس بنا حاجة إلى ايرادها (راجع ما اوردناه عن هذه المسألة الدقيقة فى صفحة ٤٧ من « ايضاح فلسفة الفارابى بنصوص منها »)

نقد فلسفة ابن سينا

وأما كتب ارسطوطاليس فقد تكفل الشيخ أبو علىّ بالتعبير عما فيها وجرى على مذهبه وسلك طريق فلسفته فى كتاب الشفاء ، وصرح فى أول الكتاب بأن الحق عنده غير ذلك وأنه انما ألف ذلك الكتاب على مذهب المشائين وأن من أراد الحق الذى لا جمجمة فيه فعليه بكتابه فى الفلسفة المشرقية ، ومن عنى بقراءة كتاب الشفاء وبقراءة كتب أرسطوطاليس ظهر له فى اكثر الأمور أنها تتفق وان كان فى كتاب الشفاء أشياء لم تبلغ الينا عن أرسطو واذا أخذ جميع ما تعطيه كتب أرسطو وكتاب الشفاء على ظاهره دون أن يتفطن لسره وباطنه لم يصل به الى الكمال حسبما نبه عليه الشيخ أبو على فى كتاب الشفاء

نقد فلسفة الغزالى

وأما كتب الشيخ أبى حامد الغزالى فهو بحسب مخاطبته للجمهور يربط فى موضع ويحل فى موضع آخر ويكفر بأشياء ثم يتحللها ثم ان من جملة ما كفر به الفلاسفة فى كتاب التهافت انكارهم لحشر الأجساد واثباتهم الثواب والعقاب للنفوس خاصة ثم قال فى أول كتاب « الميزان » أن هذا الاعتقاد هو إعتقاد شيوخ الصوفية على القطع ثم قال فى كتاب « المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال » أن اعتقاده هو كاعتقاد الصوفية وان أمره إنما وقف على ذلك بعد طول البحث . وفى كتبه من هذا النوع كثير يراه

من تصفحها وأمعن النظر فيها وقد اعتذر عن هذا الفعل فى آخر كتاب « ميزان العمل » حيث وصف أن الآراء ثلاثة أقسام . رأى يشارك فيه الجمهور فيما هم عليه . ورأى يكون بحسب ما يخاطب به كل سائل ومسترشد . ورأى يكون بين الانسان ونفسه لا يطلع عليه إلاّ من هو شريكه فى إعتقاده ثم قال بعد ذلك « ولو لم يكن فى هذه الألفاظ إلاّ ما يشكك فى إعتقادك الموروث لكفى بذلك نفعاً فان من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقى فى العمى والحيرة » ثم تمثل بهذا البيت :

خـذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به ... فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

فهذه صفة تعليمه وأكثره إنما هو رمز واشارة لا ينتفع به إلاّ من وقف عليها ببصيرة نفسه أولاً ثم سمعها منه ثانياً أو من كان معداً لفهمها فائق الفطرة يكتفى بأيسر إشارة وقد ذكر فى كتاب « الجواهر » أن له كتباً مضنوناً بها على غير أهلها وانه ضمنها صريح الحق ولم يصل إلى الأندلس فى علمنا منها شيء بل وصلت كتب يزعم بعض الناس أنها هى تلك المضنون بهـا ، وليس الأمر كذلك وتلك الكتب هى « كتاب المعارف العقلية » وكتاب « النفخ والتسوية » و « مسائل مجموعة » وسواها وهـذه الكتب وان كانت فيها إشارات فانها لا تتضمن عظيم زيادة فى الكشف على ما هو مثبوت فى كتبه المشهورة وقد يوجد فى كتاب « المقصد الاسنى » ما هو أغمض مما فى تلك وقد صرح هو بان كتاب « المقصد الاسنى » ليس مضنوناً به فيلزم من ذلك أن هذه الكتب الواصلة ليست هى الكتب المضنون بهـا وقد توهم بعض المتأخرين من كلامه الواقع فى آخر كتاب المشكاة أمراً عظيماً أوقعه فى مهواة لامخلص له منها وهو قوله بعد ذكر أصناف المحجوبين بالأنوار ثم انتقاله إلى ذكر الواصلين « أنهم وقفوا على أن هذا الموجود العظيم متصف بصفة تنافى الوحدانية المحضة » فأراد أن يلزمه من ذلك أنه يعتقد أن الحق سبحانه فى ذاته كثرة ما ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ! ولا شك عندنا فى أن الشيخ أبا حامد ممن سعد السعادة القصوى ووصل تلك المواصل الشريفة المقدسة، لكن كتبه المضنون بها المشتملة على علم المكاشفة لم تصل إلينا

تمهيد لفلسفة ابن طفيل

التى أفرغها فى قالب رسالته « أسرار الحكمة المشرقية »

ولم يتخلص لنا نحن الحق الذى انتهينا إليه وكان مبلغنا من العلم بتتبع كلام الغزالى وكلام الشيخ أبى علّى وصرف بعضهما إلى بعض و إضافة ذلك إلى الآراء التى نبغت فى زماننا هـذا ، ولهج بها قوم من منتحلى الفلسفة حتى استقام لنا الحق أولاً بطريق البحث والنظر ثم وجدنا منه الآن هذا الذوق اليسير بالمشاهدة وحينئذ رأينا أنفسنا أهلاً لوضع كلام يؤثر عنا وتعين علينا أن تكون أيها السائل أول من أتحفناه بما عندنا وأطلعناه على ما لدينا لصحيح ولائك وزكاء صفائك غير انا ان ألقينا اليك بغايات ما انتهينا إليه من ذلك من قبل أن تحكم مباديها معك لم يفدك ذلك شيئًا أكثر من أمر تقليدى مجمل هذا إن أنت حسنت ظنك بنا بحسب المودة والمؤالفة لا بمعنى أنّا نستحق أن يقبل قولنا ونحن لا نقنع لك بهذه الرتبة ولا نرضى لك إلاّ ما هو أعلى منها إذ هى غير كفيلة بالنجاة فضلاً عن الفوز بأعلى الدرجات و إنما نريد أن نحملك على المسالك التى تقدم عليها سلوكنا ونسبح بك فى البحر الذى قد عبرناه أولاً حتى يفضى بك إلى ما أفضى بنا إليه فتشاهد من ذلك ما شاهدناه وتتحقق ببصيرة نفسك كل ما تحققناه وتستغنى عن ربط معرفتك بما عرفناه . وهذا يحتاج إلى مقدار معلوم من الزمان غير يسير وفراغ من الشواغل و إقبال بالهمة كلها على هذا الفن فان صدق منك هذا العزم وصحت نيتك للتشمير فى هذا المطلب فستحمد عند الصباح مسراك وتنال بركة مسعاك وتكون قد أرضيت ربك وأرضاك وأنالك حيث تريده من أملك وتطمح إليه بهمتك وكليتك وأرجو أن أصل من السلوك بك على أقصد الطريق وآمنها من الغوائل والآفات وان عرضت الآن إلى لمحة يسيرة على التشويق والحث على دخول الطريق فانا واصف لك قصة « حي بن يقظان وابسال وسلامان » ففى قصصهم عبرة لأولى الألباب وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

﴿ ايضاح لفلسفة ابن طفيل ﴾

(١)

فلسفة ابن طفيل الباقية لنا موجوده فى كتابه الوحيد الذى سماه « أسرار الحكمة المشرقية » وهو بنفسه رسالة «حى بن يقظان » ويظن الذين اطلعوا عليها ان ابن طفيل استخلصها من فلسفة ابن سينا وهذا خطأ لأنها فلسفة قائمة بذاتها ، وقد فرغنا فيما ترجمنا له من عرض آرائه فى فلسفة الأئمة السابقين كالفارابى والغزالى وابن سينا وابن باجه ورأينا هذا الفيلسوف الأندلسى يختط لنفسه خطة قائمة بذاتها مستقلة عن أفكار الجميع ، وقد مهد لها بتمهيد بليغ أقر فيه بأنه وقف على آراء الجميع واستخلص لنفسه مذهباً وهو أول فيلسوف اسلامى صب فلسفته فى قالب قصصى وجعل بطل قصته شخصاً متوحداً يكون نفسه وأفكاره بالاحتكاك بالطبيعة وبالكائنات التى هى أقل منه درجات من جماد ونبات وحيوان الى أن يصل الى نقطة الادراك والاتصال فهذه القصة الخيالية تعد بحق نوعاً من الطوبى العقلية التى قلدها ونسج على منوالها كثيرون من كتاب الافرنج ومفكريهم

(٢)

وقد ذكر هذا الفيلسوف انه علم عن السلف الصالح ان جزيرة من جزائر الهند التى تحت خط الاستواء وهى الجزيرة التى يتولد بها الانسان من غير أم ولا أب وبها شجر يثمر نساء . ولا يخفى ما فى هذا القول من مفارقة بينه و بين تاريخ نشوء الانسان من آدم وحواء فان جميع الأديان اتفقت على ان أصل الانسان من رجل وامرأة خلقهما الله ، ولم يقل أحد من علماء الدين ان الانسان يخلق من الأرض لاعتدال جوها وخصب تربتها ، فهذا القول من ابن طفيل يعد غريباً بوصف كونه حكيما مسلماً نشأ فى القرن السادس للهجرة يقول ابن طفيل بعد أن تكلم على تكون الحرارة بسبب الحركة وملاقاة الأجسام الحارة والاضاءة ، وان بقاع الأرض التى على خط الاستواء لا تسامت الشمس رؤس أهلها سوى مرتين فى العام عند حلولها برأس الحمل وعند حلولها برأس الميزان وهى فى سائر العام ستة أشهر جنوباً وستة أشهر شمالا منهم ، فليس عندهم حر مفرط ولا برد مفرط وأحوالها بسبب ذلك متشابهة . وهذا القول يحتاج الى بيان اكثر من هذا لا يليق بما نحن بسبيله وانما نهناك عليه لأنه من الأمور التى تشهد بصحة ما ذكر من تجويز تولد الانسان بتلك البقعة من غير أم ولا أب ، فمنهم (أى من علماء السلف الصالح) من بت الحكم وجزم

القضية بأن حى بن يقظان من جملة من تكون فى تلك البقعة من غير أم ولا أب ، ومنهم من أنكر ذلك وروى من أمره خبراً نقصه عليك :

ثم اندفع ابن طفيل يروى قصة خيالية عن زواج سرى بين يقظان وبين أخت ملك تلك الجزيرة ، وان هذا الزواج السرى أثمر طفلا وضعته أمه فى تابوت والقته فى البحر كما حدث لموسى عليه السلام .

وان الذى كفل الطفل الذى خاله ملك تلك الجزيرة وأبوه يقظان ظبية حنت عليه ورئمت به وألقمته حلمة ثديهـا وأروته لبناً سائغاً ، وما زالت تتعهده وتربيه وتدفع عنه الأذى .

على أن ابن طفيل لم ترضه تلك القصة فعاد إلى رواية التكوين الطبيعى بغير أم ولا أب فقال : وأما الذين زعموا أنه تولد من الأرض فانهم قالوا ان بطناً من أرض تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين والأعوام حتى امتزج فيها الحار بالبارد والرطب باليابس امتزاج تكافوء وتعادل فى القوى ، وكانت هذه الطينة المتخمرة كبيرة جداً ، وكان بعضها يفضل بعضاً فى اعتدال المزاج والتهيوء لتكون الأمشاج . وكان الوسط منها أعدل ما فيها وأتمه مشابهة بمزاج الانسان ، فتمخضت تلك الطينة وحدث فيها شبه نفاخات الغليان لشدة لزوجتها وحدث للوسط منها لزوجة ونفاخة صغيرة جداً منقسمة بقسمين بينهما حجاب رقيق ممتلئة بجسم لطيف هوائى فى غاية من الاعتدال اللائق به فتعلق به عند ذلك الروح الذى هو من أمر الله تعالى وتشبث به تشبثاً يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل ! !

(٣)

ويستمر ابن طفيل فى سرد قصة هذا الطفل الذى هو أشبه الناس برو بنصون كروزو اسلامى أندلسى يتميز عن ذاك الملاح المتوحد بأنه نشأ فريداً لم يعرف بشراً ولم يألف إنسا ولم يقف على شىء من شؤون الحياة المادية والمعنوية . ولم يفت ابن طفيل بعد أن مس مذهب النشوء والارتقاء عن بعد ، ان يلم بمبدإ تنازع البقاء بين الانسان والحيوان فقال : « واتخذ من أغصان الشجر عصياً سوى أطرافها وعدل متنها وكان يهش بها على الوحوش المنازعة له فيحمل على الضعيف منها ويقاوم القوى منها فنبل بذلك قدره عند نفسه بعض نبالة وعلم أن ليده فضلا كثيراً على أيديها اذ أمكن له بها من ستر عورته واتخاذ العصى التى يدافع بها عن حوزته ما استغنى به عما أراده من الذنب والسلاح الطبيعى » ! !

(٤)

ولما كان ابن طفيل طبيباً وعالماً بالطبيعة والفلك والرياضيات فقد جعل بطل قصته الفلسفية على صورته وصورة من سبقه من الفلاسفة

« فبعد أن ماتت الظبية التى كانت تغذيه بلبنها تتبع ذلك كله بتشريح الحيوانات الأحياء والأموات ، ولم يزل ينعم النظر فيها ويجيد الفكرة حتى بلغ فى ذلك كله مبلغ كبار الطبيعيين فتبين له أن كل شخص من أشخاص الحيوان وإن كان كثيراً بأعضائه وتفنن حواسه وحركاته فانه واحد بذلك الروح الذى مبدؤه من قرار واحد » .

وكان حى بن يقظان ينازع الحيوان البقاء فى سن سبع سنين . فلما بلغ واحداً وعشرين عاماً كان قطع مرحلتين فى الحياة الأولى اتقانه التشريح ووقوفه على سر الحياة المادية والثانية استعماله بعض الجماد والنبات أدوات للمحاربة والتغلب ، واتخاذه بعض الحيوان بالحيلة أو بالقوة لاخضاع البعض الآخر مما هو فى حاجة الى استخدامه .

هذا ما أردنا ايراده من تلخيص تلك الفلسفة وسنذكر الآن بعض نصوص من قلم ابن طفيل نفسه فى وصف الترقى الروحانى ووصف الطريق التى سلكها حى بن يقظان الى ان وصل الى الغاية التى يرمى اليها ابن طفيل وقد قسمنا موضوع الاقتباس الى ستة اقسام:

القسم الاول : فى كيفية علم حى بن يقظان ان كل حادث لا بد له من محدث .

القسم الثانى : فى نظر حى بن يقظان فى الشمس والقمر والكواكب وبقية الاجرام السماوية .

القسم الثالث : فى ان كمال الذات ولذتها انما هو بمشاهدة واجب الوجود .

القسم الرابع : فى أنه نوع كسائر أنواع الحيوان وانه انما خلق لغاية أخرى .

القسم الخامس : فى ان السعادة والفوز من الشقاء انما هى فى دوام المشاهدة لهذا الموجود والواجب الوجود .

القسم السادس : فى الفناء والوصول .

٥ - القسم الأول

فى كيفية علم حى بن يقظان ان كل حادث لا بد له من محدث

«فعلم بالضرورة ان كل حادث لا بد له من محدث فارتسم فى نفسه بهذا الاعتبار فاعل للصورة ارتساماً على العموم دون تفصيل ، ثم انه تبع الصور التى كان قد علمها قبل ذلك صورة صورة فرأى انها كلها حادثة وانها لا بد لها من فاعل ثم انه نظر الى ذوات الصور

فلم ير انها شيء اكثر من استعداد الجسم لأن يصدر عنه ذلك الفعل مثل الماء فانه اذا أفرط عليه التسخين استعد للحركة الى فوق وصلح لها فذلك الاستعداد هو صورته اذ ليس ههنا الا جسم وأشياء تحس عنه بعد ان لم تكن مثل الكيفيات والحركات وفاعل يحدثها بعد ان لم تكن ، فصلوح الجسم لبعض الحركات دون بعض هو استعداده بصورته ولاح له مثل ذلك فى جميع الصورة فتبين له ان الافعال الصادرة عنها ليست فى الحقيقة لها وانما هى لفاعل يفعل بها الافعال المنسوبة اليها وهذا المعنى الذى لاح له هو قول رسول الله (ص) « كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به » وفى محكم التنزيل « فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ! وما رميت اذ رميت، ولكن الله رمى! » فلما لاح له من امر هذا الفاعل ما لاح على الاجمال دون تفصيل حدث له شوق حثيث الى معرفته على التفصيل وهو بعد لم يكن فارق عالم الحس فجعل يطلب هذا الفاعل المختار من جهة المحسوسات »

٦ - القسم الثانى

فى نظر حى بن يقظان فى الشمس والقمر والكواكب وبقية الاجرام السماوية

« فنظر أولا الى الشمس والقمر وسائر الكواكب فرآها كلها تطلع من جهة المشرق وتغرب من جهة المغرب فما كان منها يمر على سمت رأسه رآه يقطع دائرة عظمى وما مال عن سمت رأسه الى الشمال أو الى الجنوب رآه يقطع دائرة اصغر من تلك ، وما كان ابعد عن سمت الرأس الى أحد الجانبين كانت دائرته اصغر من دائرة ما هو اقرب حتى كانت اصغر الدوائر التى تتحرك عليها الكواكب دائرتين اثنتين احداهما حول القطب الجنوبى وهى مدار سهيل والأخرى حول القطب الشمالى وهى مدار الفرقدين ولما كان مسكنه على خط الاستواء الذى وصفناه اولا كانت هذه الدوائر كلها قائمة على سطح أفقه ومتشابهة الاحوال فى الجنوب والشمال وكان القطبان معاً ظاهرين له وكان يترقب اذا طلع كوكب من الكواكب على دائرة كبيرة وطلع كوكب آخر على دائرة صغيرة وكان طلوعهما معاً فكان يرى غروبهما معاً وأطرد له ذلك فى جميع الكواكب وفى جميع الاوقات فتبين له بذلك ان الفلك على شكل الكرة وقوى ذلك فى اعتقاده ما رآه من رجوع الشمس والقمر وسائر الكواكب الى المشرق بعد مغيبها بالمغرب ، وما رآه ايضاً من انها تظهر لبصره على قدر واحد من العظم فى حال طلوعها وتوسطها وغروبها وانها لو كانت حركتها على غير شكل الكرة لكانت لا محالة فى بعض الاوقات اقرب الى بصره منها فى وقت آخر » .

٧ - القسم الثالث

في ان كمال الذات ولذتها انما هو بمشاهدة واجب الوجود

« فلما تبين له ان كمال ذاته ولذتها انما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام مشاهدة بالفعل أبداً حتى لا يعرض عنه طرفة عين لكي توافيه منيته وهو في حال المشاهدة بالفعل فتتصل لذته دون أن يتخللها ألم ، واليه أشار الجنيد شيخ الصوفية وامامهم عند موته بقوله لأصحابه « هذا وقت يؤخذ منه الله اكبر وأحرم الصلاة » ثم جعل يتفكر كيف يتأتى له دوام هذه المشاهدة بالفعل حتى لا يقع منه اعراض ، فكان يلازم الفكرة في ذلك الموجود كل ساعة كما هو ، الا ان يسنح لبصره محسوس ما من المحسوسات أو يخرق سمعه صوت بعض الحيوان ، أو يعترضه خيال من الخيالات ، أو يناله ألم في بعض أعضائه ، أو يصيبه الجوع أو العطش ، أو البرد أو الحر ، أو يحتاج الى القيام لدفع فضوله فتختل فكرته ويزول عما كان فيه ويتعذر عليه الرجوع الى ما كان عليه من حال المشاهدة الا بعد جهد ، وكان يخاف أن تفجأه منيته وهو في حال الاعراض فيفضي الى الشقاء الدائم وألم الحجاب فساءه حاله ذلك وأعياه الدواء » .

٨ - القسم الرابع

في أنه نوع كسائر أنواع الحيوان وأنه انما خلق لغاية أخرى

« قطع بذلك على أنه هو الحيوان المعتدل الروح الشبيه بالأجسام السماوية كلها وتبين له انه نوع كسائر أنواع الحيوان وانه إنما خلق لغاية أخرى وأعد لأمر عظيم لم يعد له شيء من أنواع الحيوان وكفى به شرفاً أن يكون أخس جزأيه وهو الجسماني أشبه الأشياء بالجواهر السماوية الخارجة عن عالم الكون والفساد المنزهة عن حوادث النقص والاستحالة والتغير ، وأما أشرف جزأيه فهو الشيء الذي به عرف الموجود الواجب الوجود وهذا الشيء العارف أمر رباني الهي لا يستحيل ولا يلحقه الفساد ولا يوصف بشيء مما توصف به الأجسام ولا يدرك بشيء من الحواس ولا يتخيل ولا يتوصل إلى معرفته بآلة سواه بل وصل اليه به فهو العارف والمعروف والمعرفة وهو العالم والمعلم والمعلوم لا تباين في شيء من ذلك اذ التباين والانفصال من صفات الأجسام ولواحقها ولا جسم هناك ولا صفة جسم ولا لاحق بجسم »

٩ - القسم الخامس

في أن السعادة والفوز من الشقاء إنما هي في دوام المشاهدة لهذا الموجود الواجب الوجود

« وقد وقف على أن سعادته وفوزه من الشقاء إنما هي في دوام المشاهدة لهذا الموجود الواجب الوجود حتى يكون بحيث لا يعرض عنه طرفة عين ثم أنه نظر في الوجه الذي يتأتى له به هذا الدوام ، فأخرج له النظر أنه يجب عليه الاعتماد في هذه الأقسام الثلاثة من التشبهات :

أما التشبه الأول فلا يحصل له به شيء من هذه المشاهدة بل هو صارف عنها وعائق دونها اذ هو تصرف في الأمور المحسوسة والأمور المحسوسة كلها حجب معترضة دون تلك المشاهدة وانما احتيج الى هذا التشبه لاستدامة هذا الروح الحيواني الذي يحصل به التشبه الثاني بالأجسام السماوية فالضرورة تدعو اليه من هذا الطريق ولو كان لا يخلو من تلك المضرة .

وأما التشبه الثاني فيحصل له به حظ عظيم من المشاهدة على الدوام فهو مع تلك المشاهدة يعقل ذاته ويلتفت اليها حسبما يتبين بعد هذا .

وأما التشبه الثالث فتحصل به المشاهدة الصرفة والاستغراق المحض الذي لا التفات فيه بوجه من الوجوه إلا الى الموجود الواجب الوجود والذي يشاهد هذه المشاهدة قد غابت عنه ذات نفسه وفنيت وتلاشت وكذلك سائر الذوات كثيرة كانت أو قليلة إلا ذات الواحد الحق الواجب الوجود جل وتعالى وعز ! »

١٠ - القسم السادس

في الفناء والوصول

« فاصغ الآن بسمع قلبك وأحدق ببصر عقلك الى ما أشير اليه لعلك تجد منه هديا يلقيك على جادة الطريق ! وشرطي عليك أن لا تطلب مني في هذا الوقت مزيد بيان بالمشافهة على ما أودعه هذه الاوراق فان المجال ضيق والتحكم بالالفاظ على أمر ليس من شأنه أن يلفظ به خطر . فاقول أنه لما فنى عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير في الوجود إلا الواحد الحي القيوم وشاهد ما شاهد ثم عاد الى ملاحظة الاغيار عند ما أفاق من حاله تلك التي هي شبيهة بالسكر خطر بباله أنه لا ذات له يغاير بها ذات الحق تعالى وان حقيقة ذاته هي ذات الحق وان الشيء الذي كان يظن أولا أنه ذاته المغايرة لذات الحق

ليس شيئاً فى الحقيقة بل ليس ثم شيء إلا ذات الحق وان ذلك بمنزلة نور الشمس الذى يقع على الاجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها فانه وان نسب الى الجسم الذى ظهر فيه فليس هو فى الحقيقة شيئاً سوى نور الشمس وان زال ذلك الجسم زال نوره وبقى نور الشمس بحاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مغيبه ، ومتى حدث جسم يصلح لقبول ذلك النور قبله فاذا عدم الجسم عدم ذلك القبول ولم يكن له معنى

« وتقوى عنده هذا الظن بما كان بان له من أن ذات الحق عز وجل لا تتكثر بوجه من الوجوه وان علمه بذاته هو ذاته بعينها فلزم عنده من هذا أن من حصل عنده العلم بذاته فقد حصل عنده ذاته فقدكان حصل عنده العلم فحصل عنده الذات وهذه الذات لا تحصل الا عند ذاتها ونفس حصولها هو الذات فاذن هو الذات بعينها وكذلك جميع الذوات المفارقة للمادة العارفة بتلك الذات الحقة التى كان يراها أولا كثيرة وصارت عنده بهذا الظن شيئاً واحداً وكادت هذه الشبهة ترسخ فى نفسه لولا أن تداركه الله برحمته وتلافاه بهدايته فعلم ان هذه الشبهة انما ثارت عنده من بقايا ظلمة الأجسام وكدورة المحسوسات فان الكثير والقليل والواحد والوحدة والجمع والاجتماع والافتراق هى كلها من صفات الأجسام »